حكاية «ماجدة»

سامية محرز*

ماجدة النويهي

(١٩٥٨ - ٢٠٠٢)

- وُلدتْ ماجدة في ١٩٥٨/١/٤ في القاهرة
- عام ١٩٧٩، نالت بامتياز شهادةَ البكالوريوس من قسم الأدب الإنكليزيّ والمقارن في الجامعة الأميركية بالقاهرة.
- عام ١٩٨٨ نالت شهادةَ الدكتوراه، بامتياز، من قسم لغات وحضارات الشرق الأدنى في جامعة هارڤرد
- عام ١٩٨٩ كانت مدرِّسة «مُحاضِرة» في جامعة پرنستون.
- عام ١٩٩٤ صارت أستاذةً مساعدة، ثم أستاذةً زميلة في الأدب العربيّ في قسم اللغات والحضارات الشرق أوسطية في جامعة كولومبيا
- ابنة د. محمد النويهي، أستاذ الأدب العربيّ ورئيس قسم الدراسات العربية في الجامعة الأميركية بالقاهرة، وأحد أبرز كتّاب الآداب في زمنه
- لها كتابٌ بالإنكليزية عن شعر ابن خفاجة، صدر عن إي جي. بريل عام ١٩٩٣، فضلاً عن عدة مقالات بالإنكليزية عن إدوار الخراط ومحمد برادة وسلوى بكر وآخرين نشرت الآداب دراسةً ممتازةً لها في العدد الخامس من عام ٢٠٠١ بعنوان «تدريس الأدب العربيّ في أميركا: تقريب بين الحضارات أم توسيع للهوة بينها؟»
- توفيتْ في الرابع من حزيران (يونيو) ٢٠٠٢ في فيلادلفيا، وتركتْ وراءها زوجًا أستاذًا للهندسة في جامعة دركسل (فرنان كوهن) وولديْن نديم ونادیا

كان يا ما كان في قديم الزمان

كانت قد اعتادت الجلوسَ على الطرف الآخر من الطاولة حيث كنتُ أجلس في قاعة السيمينار في قسم الأدب الإنكليزيّ. لم أكن أعرفها آنذاك. لكنَّها بَهَرَتْني بعينيها الوسيعتيْن الحادّتيْن، وبانتباهها المركّز، وملاحظاتها الثاقبة أبوها، محمد النويهي، كان أستاذي، وكان رجلاً رائعًا. كنتُ أحسدها على أبيها. وكنتُ أحسدها على اتّزانها، وثقتِها بنفسها، وتحدِّيها.

مضى وقتٌ طويلٌ قبل أن نصبح صديقتيْن، أيْ قبل أن نضع جانبًا روحَنا التنافُسية لنتَّحد من حول المستحيل، أو على الأقلّ ما بدا مستحيلاً آنذاك. كنّا نحن الاثنتيْن مغرومتيْن، وكانت حكايتانا صعبتيْن فقد وُلدنا نحن الاثنتيْن في البرج نفسه، وقادنا قَلْبانا إلى رجليْن كانا ـ بدوْرهما ـ صديقيْن وُلِدا في البرج نفسه. كان ذلك في السبعينيات.

شكّلنا، نحن الأربعة، عُصبةً. كنّا نتقاسم حلمًا واحدًا بالرحيل، بالنموّ، بالمستحيل حكايتُها هي كانت أكثرَ صعوبةً من حكايتي أنا. فرعيْناها، نحن الأربعةَ، وحميْناها معًا. وحين سافرتْ إلى جامعة هارڤرد، وسافر هو إلى جامعة براون، ثم التقيا في النهاية برغم كلّ العوائق، عرفنا أنْ لا شيء مستحيلاً. هذه المعرفة، بل هذا اليقينُ المبكِّرُ جدًا، هو الذي صاغ حياةَ ماجدة بأكملها. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا أصبحتْ حكايتُها سلسلةً من المستحيلات، جعلتْها ماجدة بنفسها أمورًا ممكنةً.

والآن إذ أسترجعُ شريطَ حياتها أرى أنّ كلّ مرحلة كانت درسًا، امتحانًا للحدود، وللعوائق، والمجازفات التي خَلَّفتي على الدوام في حالٍ من الدهشة والإعجاب. فقد رَعَتْ طفليْن رائعيْن، وكَتبتْ أطروحتَها، وعَلَّمتْ في هارڤرد، وسافرتْ مراتٍ لا تُحصى بين پروڤيدانس وبوسطن، وبَزَغتْ ناضجةً قبل أوان النضوج: قلبًا كبيرًا، وصديقةً دافئةً، ومستمِعةً صبورةً، وروحًا مستقلةً، وباحثةً لامعةً، وزميلةً متسامحةً، وخصمًا خطيرًا. لقد أصبحتْ كلّ ذلك في الوقت الذي كنتُ ما أزال فيه مشغولةً بأن أكون طالبةً جيدةً وأكاديميةً جيدةً. وظَلَلْتُ بقيةَ سنوات صداقتنا أحاول أن ألْحق بها، لأكتشفَ أنّ ذلك قد يكون على الأرجح أمرًا مستحيلاً.

* ـ أستاذة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية بالقاهرة. والمقالة في الأصل نُشرتْ في **Arab Studies Journal** (خريف ٢٠٠٢) وتُنشر هنا بترجمة الآداب، وبإذن خاص من المجلة المذكورة.

... وعاشت في سعادة وأمان

من الولايات المتحدة أولاً، وبعد ذلك من القاهرة، رحتُ أُتابع حكاياتِ نُموِّها ونجاحها. فقد عُيِّنتْ في بعضٍ من أكثر مراكز التعليم تميُّزًا: جامعة پنسلڤانيا، ثم جامعة پرنستون، وأخيرًا في جامعة كولومبيا حيث كانت أستاذةً زميلةً في الأدب العربيّ في قسم اللغات والحضارات الشرقأوسطية والآسيوية. ونما الطفلان، ونما شوقُها إلى مصر. فكانت تأتي إلى القاهرة وحدها، أو بصحبة عائلتها الصغيرة الرائعة، لتغرق في دفء صداقاتها المديدة، في الوقت الذي تشيِّد فيه روابطَ قويةً أخرى مع عددٍ كبيرٍ من الشخصيات الثقافية والأدبية الذين شَغَلَت أعمالُها عقلَها وشكَّلتْ أبحاثَها حين كانت خارج مصر. كانت تروح وتجيء، وبسهولةٍ تُحْسَدُ عليها، بين قاعدتها الأولى الراسخة في التقليد الأدبيّ الوسيط من جهة، وميدانِ الأدب العربيّ الحديث من جهة ثانية. وكانت تَكْتشف وتَفْتح مناطقَ جديدةً في رحلتها المهنية، مثل الدراسات الجُنُوسية (الجندرية)، ودراساتِ ما بعد الكولونيالية، والترجمة. وكان آخرُ مشروع قرّرتْ خوضَه أثناء أيام مرضها الأخيرة منسجمًا تمامًا مع كون عملها المهنيّ وحياتِها الخاصة في تناغمٍ كامل، يمكِّن الواحدُ منهما الآخرَ، في كلّ مرحلة من مراحل وجودِها المتحدِّي. فقبْل شهريْن أو ثلاثة على مغادرتها إيّانا، في الرابع من حزيران (يونيو) ٢٠٠٢، كانت قد وَقّعتْ عقدًا لتأليف كتاب عن الشاعر الصوفيّ جلال الدين الروميّ. وحين كَتبتْ تُخْبرني عنه عَلِمْتُ أنّها قد قرّرتْ بهدوء أن تُصعِّد ألَمَها الجسديَّ وأن تشقّ دربًا مختلفًا من السُّلام مع نفسها ومع العالم.

مع مرور السنوات، أيْ بعد أن صرنا زميلتيْن لا مجرَّد صديقتيْن، حاولتُ أن أقلّد فنَّها الفريدَ في الصبر والجرأة، ذلك التوازنَ المتحدِّيَ الذي بَنَتْه بين التسامح وتأكيد الاختلاف. وشَهدتُ كيف تَرْعى ولادةَ جيلٍ جديد؛ إذ كانت تُرسل طلاَّبها لرؤيتي في الجامعة الأميركية بالقاهرة، فيجلسون في مكتبي ويتغنَّوْن بفضائلاها ساعاتٍ بطُولها: صرامتها المشغولة بأدقّ التفاصيل، رفقتها البهيجة، التزامها الثابت، نقدها الذي لا يُهادِن. كانت ماجدة، المعلِّمة، تحمي طلاّبها بشراسة، لكنَّها كانت أيضًا تَدْفعهم إلى أقصى الأمداء، فتمكّنهم من أن يصبحوا ما كانت عينُها المميِّزةُ وحدَها قادرةً على رؤيته منذ البداية. لقد خَلّفتْ ماجدة وراءها كوكبةً جميلةً من النجوم التي غدت اليومَ من بين أبرز الباحثين والباحثات الشباب في حقلهم.

الأميرة والتنّين

لكنّ الحكاية كانت ربّما أجملَ من أن تستمرّ. ففي العام ١٩٩٥ شخَّصَ الأطباءُ إصابةَ ماجدة بالسرطان، وتزامَنَ ذلك مع مباشرتها وظيفتَها اللامعةَ في كولومبيا وتمتُّعِها بمذاق عائلتها الناضجة. فوقفتْ شامخةً بيننا، في حين انحنيْنا نحن خوفًا على حياتها. واندفع العالمُ أفواجًا ليكون إلى جانبها حين خَضَعتْ لعملية شاقة في لوس أنجلس، هي عمليةُ زرع نُخاع عظمها. لقد جاء أصدقاؤها من أربعة أرباع الأرض، بكلّ ما في هذا التعبير من معنى، ليكونوا إلى جانبها. آنذاك اتّصلتُ بها من القاهرة، لأطمئنّ عليها بصوتٍ مرتجف، فجاء صوتُها ثابتًا قويًا. «كويّسة،» قالت، «قلبي عليهم بَسْ،» مشيرةً إلى قلق أصدقائها المتحلِّقين حولها. وكم كان فرحُنا عظيمًا حين حَوَّلتْ ماجدة لحظةَ الموت المحتمل تلك إلى حياةٍ جديدةٍ، وانبثقتْ من تلك المأساة منتصرةً متوهِّجة.

لكنّ التنين لم يَرْحم، وقُدِّر للأميرة أن تواجه معاركَ جديدةً. كان التنين يكْمن لها عند كل زاوية، وكانت هي تخوض الحربَ تلو الحرب حتى هزمتْه، وخلَّفتْه وراءها، وتجاوزْته بمهابةٍ ويقينٍ وشجاعة. وكانت آخر مرة رأيتُ فيها ماجدة في أيار (مايو) ٢٠٠٢، قبل شهر تقريبًا من رحيلها عنا. كانت تجلس في السرير وتبدو ضعيفةً جدًا، لكنّ عينيْها الوسيعتيْن الحادتيْن سمَّرَتا نظرتي غيرَ المصدِّقة. جلستُ عاجزةً عن الكلام، فيما أَخذتْ تَلْمس بحنانٍ الهدايا الكثيرةَ التي حَمَلْتُها معي من أصدقائها في القاهرة. راحت تجرِّب الملابسَ، وتعلِّق على جمال الألوان ودقّة الأشكال. سألتْني عن آخر «خبرية» من القاهرة، واستَمَعَتْ باهتمام مشدوهٍ إلى المكائد التي سردتُها عليها، برغم الألم الذي كان يقتات من جسمها الذي غدا ضئيلاً. بعد يوميْن أو ثلاثة ذهبتُ لرؤيتها في المستشفى. كانت مضطجعةً في سريرها، بسلام شديد، عيناها مغمضتان، نائمةً كما ظننتُ. جلسنا، فِرْنان [زوجُها] وأنا، حولَها نتحدّث عن تاريخ مرضها، وعن خطط المستقبل، وعن نيّته طلَبَ مشورةِ طبيبٍ إضافيّ. فجأةً فتحتْ ماجدة عينيْها وقالت: «پراڤو، ناندو!» لقد كانت تتابع حديثَنا بانتباهٍ طوال الوقت! قمتُ إليها وقبّلتُ يدَها وجبهتَها، في ما خشيتُ أن يكون المرةَ الأخيرة عانقتْني لحظةً وقالت: «أشوفك عن قريب.» صُعِقْتُ وأحسستُ بالضآلة بسبب محدودية تخيُّلي للمُمْكنات في العالم. صدَّقتُها. وبعد شهر انْهَرْتُ. لكنّي اقتنعتُ أنّها كانت قد وَضَعتْ حدًّا للحرب. فقد غادرتْها، وابتعدتْ عنها، بمهابةٍ ويقينٍ وشجاعة

لأجلنا جميعًا

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٨ وجدتُني في قلب أزمةٍ كبرى تُحيط بتدريسي سيرةَ محمد شكري الروائية، **الخبز الحافي**، في أحد صفوفي في الجامعة الأميركية بالقاهرة. وصُودف أن كانت ماجدة في القاهرة حين بدأتِ الأزمة. كانت قلقةً جدًا عليّ، وقبْل أن تغادر القاهرة حَمّلتني على أن أعِدَها بأن أحيطها علمًا بتطوّر القضية. ومع تصاعد الأزمة وامتدادِها إلى الصحافة المصرية، اتّضح لي أنّني سأعجز عن مقاومة العاصفة وحدي. فالتمستُ العونَ منها ومن صديقنا وزميلنا العزيز محمد صدِّيق الذي يدرّس في جامعة كاليفورنيا ـ بيركلي. فبادرا معًا إلى صياغة ونشر رسالة على شبكة الإنترنت ضدّ الرقابة ودفاعًا عن الحرية الأكاديمية، وناشدا الزملاء دعمي أثناء الأزمة والدفاعَ عن المخيِّلة الأدبية العربية.

كانت ماجدة قد بدأتْ للتوّ إجازتَها من التدريس للعمل على بحثها. فكانت مشغولةً بالكتابة والاستفادة قَدْرَ المستطاع من سنتها تلك، قبل أن يُناقَشَ تثبيتُ وضعها كأستاذة دائمة في جامعة كولومبيا، بالرُّغم من نوبات السرطان التي لا تَرْحم. غير أنّها بدلاً من التركيز على بحثها وَضَعَتْ نفسَها في قلب العاصفة وحمَلَتْني ببسالة إلى شاطئ الأمان. لقد أعطتني إجازَتها تلك، بمهابةٍ ويقينٍ وشجاعة.

وطوال ستة أشهر، وهي المدةُ التي استغرقتْها أزمةُ **الخبز الحافي**، كنّا على تواصل يوميّ عبر الإيميل. تشاطَرْنا لحظاتٍ لا تُنسى من الخوف والقلق والغضب، ولكنْ أيضًا من الضحكِ والخبث. لقد استطعنا فجأةً أن نَحْيا الأبعادَ الكثيرةَ لعلاقتنا عبر العالم، وبطريقةٍ فريدةٍ في كثافتها وحميميتها. كصديقتيْن، وزميلتيْن، وامرأتيْن، ووالدتيْن، وكطفلتيْن شقيّتيْن كانتا ربّما تَلْعبان بالنار. ولقد أدارت ماجدة أزمةَ **الخبز الحافي**. فأجابت عن الأسئلة، وردّت على رسائل الإيميل، واتّصلتْ بمنظمات أكاديمية مختلفة، وتحدّثتْ إلى صحفيين كُثُر. أما رسالة دَعْمها لي أثناء الأزمة [منشورة ص ١١٦ ـ ١١٧ هنا] فقد اعتبرتْها إدارةُ الجامعة الأميركية بالقاهرة «عميقةَ التفكير،» «وأبلغَ بما لا يقاس» من رسائل الدعم الكثيرة الكثيرة التي أُرسلتْ إليّ. ومع أنّ أزمة **الخبز الحافي** استنزفتْنا كلتيْنا، فإنّها كانت تجربةً رائعةً في الصداقة والتضامن. غير أنّ الدرس الأعظم الذي تعلّمتُه من ماجدة خلال الأزمة هو أنّها فَعلتْ ما فعلتْه لا لأجلي فقط بل أيضًا، كما قالت ببلاغةٍ شديدةٍ في الرسالة التي وجّهَتْها إلى رئيس الجامعة، «لأجل الجامعة الأميركية بالقاهرة، ولأجل مصر، ولأجلنا جميعًا...»

خاتمة

في تموز (يوليو) ٢٠٠٢، بعد رحيل ماجدة عنا، قرّرنا فِرْنان وأنا أن نُطْلق حملةً لجمع الأموال من أجل إنشاء جائزة سنوية للإنسانيات في الجامعة الأميركية بالقاهرة، باسْم ماجدة النويهي، عن أفضل أطروحة ماجيستير في الدراسات النسوية/الجُنوسية. إنّها لحظةٌ رمزية لنتذكّر ماجدة .. لأجلها هي هي التي أعطت الكثيرَ الكثيرَ من حياتها القصيرة، لَكِن المميّزة، من أجلنا جميعًا.

القاهرة

تتمة الافتتاحية ص ١

من الحُفرة إلى الحُفرة

أقول لا يتّسع المجالُ لكلّ هذا، ولعلّنا نخصّص في الآداب ملفًا كاملاً عن اللغة العربية اليوم، أو عن أدب الأطفال العرب. ما أودّ أن أُركّز عليه هنا هو أنّ معظم «أدب» الأطفال عندنا يحضّ على الاغتراب، لا بسبب تحجّره اللغويّ فحسب، أو إنتاجه الفنيّ الرثّ فقط، بل أيضًا بسبب إغراقه في «رَسْكلة» (إعادة تدوير) التراث العربيّ الإسلاميّ، وكأنْ لا إمكانيةَ لتطوّر العرب إلاّ... بتقهقرهم إلى ماضٍ مُؤَمْثَل. إنّ ما سمّاه أحدُ المثقفين «الاعتراب» (بالعَيْن) هو الوجهُ الآخرُ للاغتراب (بالغين المعْجَمة)؛ فالتطلّع بشغفٍ وانبهارٍ إلى الغرب الديموقراطيّ الأشقر المتحضّر لا يختلف كثيرًا من حيث المبدأ عن التطلّع بحنينٍ وتقديسٍ إلى الماضي العربيّ الإسلاميّ التقيّ النقيّ الطاهر. كلاهما يضع حاضرَنا بين قوسيْن: كأنْ لا جمال يُمْكن أن يَطْلع من حكاياتنا اليومية، بل علينا أن نتطلّع دائمًا وأبدًا إلى ميكي ماوس وعنترة، إلى باربي وقصص الخلفاء الراشدين!

أعود إلى البداية. اليأس والإحباط والقرف والاغتراب: هذه جميعُها لم تأتنا من الأعداء «الغربيين» وحدَهم، ولا من أنظمة «الاستبداد الشرقيّ» وحدها، ولا من أحزابنا «الثورية» فحسب. بل أتَتْنا أيضًا ممّا زَرَعه آباؤنا وأمّهاتُنا فينا: من القصص السخيفة عن ماضٍ ذهبيٍّ هو نسخةٌ عن الخالق الذي ﴿لا يأتيه الباطلُ مِنْ بين يديْه ولا مِنْ خلفه﴾؛ ومن لغةٍ متقعّرةٍ جامدة تَدْفع بالكثير من أطفالنا إلى أحضان الكتب الفرنسية أو الإنكليزية؛ ومن أخلاقويةٍ فجّةٍ لا يهمّها الأدبُ ولا الإمتاعُ، بل الوعظُ ثم الوعظُ ثم الوعظ.

إنّنا، في حقيقة الأمر، نَخْلق في هذه الكتب نموذجًا لما سوف نَكْرهه حين نَكْبر، من دون أن نُدرك الصِّلةَ بين الماضي والحاضر: نَخْلق فيها المستبدَّ العادلَ، ثم نَشْتم صدّامًا؛ وكأنّ الذي يَفْصل بين هذا وذاك ـ مفهوميًا على الأقلّ ـ كبيرٌ جدًا. ونكرّس فيها «الأصالةَ» اللغويةَ، ثم نتأفّف من بن لادن والجماعات الأصولية؛ وكأنّ تلك منفصلةٌ تمامًا ـ مفهوميًا أيضًا على الأقل ـ عن هذه. وإذا حَدَثَ أنْ قرفنا من اللغة العربية ومن الأصولية ومن الأخلاقوية، واستسلمنا لإغواء الأفلام والكتب الفرنسية والإنجليزية والأميركية، رُحْنا نَعيب على القذافي استسلامَه أمام الغرب، وكأنّ الاستسلاميْن منفصلان تمامًا.

إنّنا بحاجة إلى أن نهزّ أنفسَنا هزًا. أين نذهب؟ إلى أين نأخذ أطفالَنا؟ الأرجح أنّنا، إنْ بقينا نَشْتم الآخرين ونسينا ما نقترفه نحن بحقّ أطفالنا وأنفسنا، فسنبقى جميعُنا في الحفرة التي «نَجَحَ» صدّام والقذافي وحدَهما في الخروج منها... ولكنْ إلى أين؟

سماح إدريس
بيروت